المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الأستاذ: حمزة بوزيدي

جماليات الأدب الصوفي

الرمز:

كثر الحديث عن الرمز في شعر الصوفية، وتعددت الدراسات الأدبية منها والنقدية التي تناولت هذا الموضوع الذي يعد قديما قدم الابداع الشعري نفسه، فقد أصبح استخدام الرمز من الخصائص الفنية التي تميز شعر التصوف في العصر العباسي وما تلاه من العصور.

ومن الرموز التي تداولها الصوفية في أشعارهم ما يلي:

1- رمز المرأة: تشكل المرأة رمزا في شعر الصوفية له قيمته الفنية من خلال توظيفه كشكل أنثوي مشرب بأبعاد إلهية، ويوضح الدكتور عاطف جودة نصر هذا بقوله: "تظهرنا دراسة ما خلق الصوفية من تراث شعري وتأملات ثيوصوفية، وما حفلت به بعض مذاهب الشيعة من اتجاهات عرفانية على تصور المرأة بوصفها رمزا لجوهر أنثوي أشرب طبيعة طبيعية إلهية مبدعة"[1].

ومنه قول ابن الفارض:[2]

وأبثتها ما بي ولم يك رقيب بقا حظ بخلوة جلوة حاضري

وقلت وحالي بالصبابة ووجدي بها ماحِيّ والفقد شاهدي مثبتي

---

[1]- عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1978، ص124.

[2]- ابن الفراض: ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ت، ص 46-47.

هبـــي قبـــل يفنـــي الحـــبّ منّـــي أراك بهـــا لـــي نظـــرة المتلفّـــت بقيـــــــــــــــــــــــــــة

إلى قوله:

فلـــو قيـــل مـــن تهـــوى؟ وصـــرحت باسمها لقيـــل: كنـــى، أو مسّـــه طيـــف جنّـــــــــــــــــــــــــــة

ويعلق الدكتور ابراهيم محمد منصور على هذه الرمزية، بقوله: "أما ابن الفارض فقد استخدم رمز المرأة بطريقة بعيدة عن الحسية، فللمعشوقة، وهي الذات الإلهية، صفات بشرية وصفات أخرى روحية، وغالبا ما يشار إليها بضمير الغائبة أو بضمير المخاطبة، فصورة المحبوبة في هذه القصيدة صورة رمزية سامية، بعيدة عن الحسية، وهي أجلّ من أن يسميها لأنه لو سمّاها، إما يصدقه أحد أو أن يتهم بالجنون"[3]؛ وبهذا عدت المرأة معادلا موضوعيا عند شعراء الصوفية

2- رمز الخمرة:للخمرة حضور رمزي في الشعر الصوفي له دوره الفني والتّعبيري غير أن الصوفية لم يكن يهمهم الجانب الحسي والشهواني فيه، "ولكنهم كانوا كمن ينشئ رمزه الخاص برغم استخدامهم لنفس الصور والتشبيهات والمعاني والألفاظ، فشعر أبي نواس وغيره من شعراء الخمر كان ينشد للتعبير عن المواجيد والهيام"[4]، وهذا يشبه كثيرا قول القشيري: "فإذا كوشف العبد بنعت الجمال، حصل السكر، وطاب لروح، وهام القلب"[5]، وقد أنشدوا:[6]

فصـــحوك مـــن لفظـــي وهـــو الوصـــــــــل كلـــــــــه وســـكرك مـــن لحظـــي يبـــيح لـــك الشـــــــــــــــــــــــــــربا

---

[3]- ابراهيم محمّد منصور: الشعر والتصوف، دار الأمين للنشر والتوزيع، دمياط، مصر، 1996، ص ص57-58.

[4]- ابراهيم محمّد منصور: الشعر والتصوف، ص59.

[5]- عبد الله بن أسعد اليافعي: "نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية"، تح، خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص201.

[6]- المصدر نفسه، ص202.

فمـا حـلّ سـاقيها ومـا مـلّ شـارب عقـار لحـاظ كأسـه يسـكر اللُّبـا

ومنه أيضا:[7]

لـــي ســـكرتان وللنـــدمان واحـــدة شـــيء خصصـــت بـــه مـــن بيـــنهم وحـــــــــــــــــــــــــــــــدي

فكـلّ شـخص بـدا لـي أنـه قـدحي وكـلّ لحـظ أراه فهـو لـي سـاقي

ويهذا الطرح الرمزي فإن الخمر الصوفية مجازية عن السكر العادي، الذي نعرفه، ولكنها سكر من خمر المحبة الإلهية، حتى حصول النشوة الرحبة التي لا يدركها إلا الصوفية.

3- رمز الطبيعة:كانت الطبيعة مصدر إلهام للشعراء منذ القدم، يستلهمون منها مادة التشكيل الشعري بكل أبعاده الفنية، غير أن الصوفية اتخذوا منها رمزا للتعبير عن أحوالهم، يقول الدكتور ابراهيم محمد منصور في هذا: "رمز آخر عُني به الصوفية هو رمز الطبيعة، فقد نظروا إلى المخلوقات جميعا على أنها مجلى من مجالى الحق، والجمال الإلهي، ولابد أن يكون الشجر والأنهار والورد وكل مظاهر الجمال في الطبيعة مصدرا من مصادر الاعجاب، ورمزا من رموز الصوفية الشعرية الجميلة"[8]؛ فالطبيعة لدى الصوفية ليست كالطبيعة التي يتصورها غيرهم من الشعراء، فهي المهرب الذي يلجأون إليه من متاعب الدنيا، وهي حلمهم الأكبر في الآخرة، وهي بالنسبة لهم تشكل تجلي من تجليات الجمال الإلهي.

ويذهب ثروت عكاشة إلى القول في معرض حديثه عن الرمز الطبيعي في الشعر الصوفي: "أو لم ير جلال الدين الرومي أن كل ما في الحدائق من زهور

---

[7]- سعد الدين الفرغاني: منتهى المدارك في شرح تائية ابن الفارض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج1، ص152.

[8]- ابراهيم مُحَمَّد منصور: الشعر والتصوف، ص68.

ومياه وينابيع وأشجار هي تجلي الجمال الإلهي والنموذج الأمثل للجنة العليا، وتنسّم المتصوفة ففي كل وردة نفحة من عطر الجنة، وتسمّع الصوفية في حفيف الورود إلى تسبيحها لله ..."وإن من شيء إلا يسبّح بحمده"، وكان ذو النون المصري يعلم مريديه أسرار هذا التسبيح الذي تشارك ففيه الخليقة كلها قبل القديس ففرنسيس الأسيزي بأربعة قرون"[9]. وقد خلّف الصوفية تراثا شعبيا غنيا بالرموز الطبيعية.

ومن هذه الرموز قول ابن الفارض:[10]

تـراه إن غـاب عنّـي كـلّ جارحـة ... فـي كـل معنـى لطيـف رائـقٍ بهـيج

فـي نغمـة العـود والنّـاي الـرخيم ... تألفـا بـين ألحـان مـن الهـزج إذا

فـي مسـارح غـزلان الخمائـل ... بـرد الأصـائل والأصـباح فـي فـي البلج

وفـي مسـاقط أنـداء الغمـام ... بسـاط نـور مـن الأزهـار منتسـج على

وفـي مسـاحب أذيـال النسـيم إذا ... أهـدي إلـي سـحيرا أطيـب الأرج

وفـي التثـامي ثغـرا كـأس ... ريـق المدامـة فـي مسـتنزه ففـرج مرتشـفا

---

[9]- جبران خليل جبران: حديث النبي، ترجمة، ثروت عكاشة، ط9، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2002، ص 16-17.

[10]- ابن الفارض: ديوان ابن الفارض، ص ص146-147.

والمتأمل في هذه الأبيات يجد أن العشق الإلهي يمتزج مع عناصر الطبيعة الحيوانية منها والطبيعة الساكنة، "والعشق الإلهي مرتبط بجمال الذات الإلهية، ولهذا كان ارتباط العاشق والمحب الصوفي بالطبيعة هو ارتباط بجمال الحق، وقد صور ابن الفارض حبه الإلهي ممتزجا بتمجيده للطبيعة ومجالي الجمال فيها، تصويرا جميلا ففيه تمجيد لمظاهر القدرة الإلهية، وصور الجمال التي هي صورة الحق، باعتبار كل ما في الوجود إنما هو مجلى من مجالى جمال الذات المقدسة"[11]. والطبيعة تشتمل على أنغام وألحان، وغزلان، وخمائل، ونسيم وأنداء وغمام وهي مظاهر طبيعية تعد انعكاسا لجمال الذات الإلهية المقدسة، تؤثر في نفس الشاعر وتثير فيه النشوة والرضا والسكينة والمحبة، ويشعر كأنه في حضرة الخالق عز وجل.

[11]- ابراهيم مُحَمَّد منصور: الشعر والتصوف، ص69.